

المقامات الليغونية

بقلم علي درويش

٦ حزيران ١٩٩٦

المقامة الأولى

حدثنا سعد بن المتعظ بغيره الليغوني قال: دعاني أحد الأصدقاء إلى مأدبة في داره تكريماً لأحد القضاة المتقاعدين. وكان الصديق رجلاً فاضلاً كريماً كالطائي في كرمه، وفيماً كالسموأل في وفائه. وكان يفتح بابه على مصراعيه للضيوف من أين أتوا، فكان كالعسل الذي يجتذب النحل والذباب على حد سواء. وكان الذباب يزاحم النحل في النهل والغل حتى كثر وتكاثر على موائد الكرم والعطاء. ومازلت وجمع من الضيوف نتحادث وتسامر حتى استأذن صديقي بالذهاب لقضاء حاجة داخل البيت. وبينما نحن قعود نتنادم وتتناول الطعام والشراب على أصوات المطربين وأنغام الموسيقى إذ دخل علينا رجل مسن معتدل القامة، له لحية بيضاء مخضبة بالسواد. فسلم علينا ولم نسمعه في هرجنا ومرجنا. فتوجه إلى أحد الكراسي ليجلس فقال له أحدهم ممغمغماً وهو يضع لقمة في فمه: هذا كرسي صاحب الدار. فهز برأسه إقراراً واحتراماً وتوجه إلى كرسي آخر فهمم بالجلوس فقال له ضيف آخر: هذا الكرسي محجوز.

ف رأى الشيخ كرسياً في زاوية من المجلس فجلس فيه. وما زال الضيوف منشغلين بسفسف الحديث وسفسط الكلام لا يشاركون الشيخ في شيء منه ولا يريد المشاركة فيه حتى شعر أنه خارج مجلسهم فقام وهو يتمتم لنفسه: إذا كنت

في مجلس ولم تكن المتكلم أو السامع فقم وارجل. فسمعه رجل في المجلس، وكان مغروراً يجب الرياسة والوجاهة والتملق، فصرخ به أمام الجميع قائلاً: ويحك يا رجل! أتدخل علينا ولا تسلم وتجلس في مجلسنا ولا تكلم. ونحن لا نعرفك ولا تعرفنا. فأراد الشيخ أن يقول شيئاً فهب الرجل مقاطعاً: وتجروء على الشتيمة والسب وأنت شيخ مسنٌ تعثر في الأرنب؟ كثر فيك المشيب وكثر فيك المعيب! فاعتدل الشيخ في وقفته وهدق في الرجل بصمت وسكون وجف منه قلب الرجل وكادت قلوب الحضور تتوقف عن الخفقان. وأجال الشيخ بعينه في الجلوس برهة ثم التف ببطاء وخرج. فعاد القوم بلا توانٍ إلى الأكل والشراب والمسامرة والغناء وكان شيئاً لم يكن.

قال الليغوني: وما كاد الشيخ يغيب في عتمة الباب حتى عاد صاحب الدار فلمح طرفه وهو يختفي في ظلام الليل. فسأل ضيوفه: من هو ذاك؟ فقال أحدهم: طفيلي دخل علينا بلا إذن وخرج بلا استئذان! ثم طالت السهرة والكل في لهو ولعب ومسامرة في انتظار القاضي الذي يجتمعون على شرفه فلم يحضر. وما زالوا كذلك حتى انقضت الساعات وشارف الليل على الانتهاء ولا أثر للقاضي ولا خبر، فانفض الجمع وعاد كل واحد منهم من حيث أتى. وفي الصباح الباكر خرج صاحبنا للاستفسار عن القاضي فوجد نفسه أمام باب داره. فدق الباب مرتين وانتظر. وما هي برهة أو برهتان حتى فتح القاضي الباب فسلم ورحب بصاحبنا وأدخله داره. فسأله عن سبب غيابه فأخبره القاضي أنه جاء إليه ولكنه لم يجد من يستقبله. وأخبره ما حدث. فاستاء صاحبنا من ذلك كثيراً وقال للقاضي: ليتك انتظرتني حتى أخرج وألقن هؤلاء درساً في الأخلاق والأدب. فقال له القاضي: لا حياة لمن تنادي. فلا تبذل رِقْكَ لمن لا يعرف حقك!

علي درويش

٦ حزيران ١٩٩٦

© ١٩٩٦ جميع الحقوق محفوظة للمؤلف